محاضرة الثانية

نظريات نشأة اللغة الإنسانية :

إن اللغة هي أجد ر و أقوى وسيلة للاتصال بين بني البشر ، منذ أن جبل الإنسان على تعلم اللغات من عند الله تعالى استنادا لقوله جلَ في علاه : " ***الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4)...*** " سورة الرحمن.

إنَ مسألة نشأة اللغة مسألة تداولتها الكتب و الأوراق ،و تعود جدلية وجودها منذ مئات السنين قبل الميلاد ،ولم ترد أيَ كتابة أو مؤلف له دليل قاطع إلى التوصل إلى جذروها الأولى.

فاللغة العربية إحدى اللغات السامية ،نشأت في الجزيرة الأولى مسقط الساميين الأول و قد جاء عند الجوهري في الصحاح ،أنَ اللغة العربية هي أقرب اللغات إلى اللغة الأم و نسبت إلى أهلها " العرب " ،و العرب نسبة إلى يعرب بن قحطان و قد قيل أنَه أول من تحدث و تكلم بالعربية .

كما اختلفت الأقوال في أول من نطق بها ،فمنهم من عدَها و نسبها إلى إسماعيل بن إبراهيم – عليهما السلام – و هذا ما ذهب إليه ابن سعد في طبقاته، و هناك قول بأنَ آدم –عليه السلام– أول من تكلم باللغة العربية .

أصل اللغة بين التوقيف و الاصطلاح و المحاكاة :

إنَ العلماء و المفسرين و المتكلمين أمع رفوا كثيرا في نشأة اللغة العربية ،و شغلت هذه القضية بالهم ،فخلصوا إلى أربع نظريات أشهرها :

- ✓ **النظرية التوقيفية :** فترى هذه النظرية أنَ اللغة العربية هي وحي و إلهام من عند الله ،و لا يد للإنسان في وضعها ،فمن القدماء نجد أول الفلاسفة

اليونانيين الذي ناصروا و أيدوا هذه النظرية ،و أقروا بها الفيلسوف اليوناني "***هيرقليطس***" **(ت 480 ق.م)** ،ومن المسلمين ابن عباس – رضي الله عنه– مستندا في رأيه على الآية الكريمة لقوله تعالى :" **وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** " سورة البقرة –31– . و قد ناصر هذا الرأي ***ابن فارس*** حيث أنّه قال :" أقول إنَ لغة العرب توقيف "[i] ،و دليل ابن فارس – رحمه الله– في ذلك نفس رأي ابن عباس هو الرجوع إلى الآية الكريمة السابقة الذكر .

- ✓ **<u>نظرية التواضع و الاصطلاح :</u>** و خلاصة هذه النظرية هو أنَ اللغة من صنع الإنسان بالاتفاق فيما بينهم ،فيُقال اِصطلح الناس على شيء أي اتفقوا , و تفاهموا و السبب الذي جعل بني البشر يتفقوا سبب واحد هو حاجتهم إليها.

و من أنصار هذا المذهب ،ابن جني الذي تحدث عن أصل اللغة هل هي إلهام أم اِصطلاح ، فقال:" هذا موضع محوج إلى فضل تأمل، غير أنَ أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنَما هو تواضع و اِصطلاح لا وحي و توقيف "[ii].

فرأي ابن جني هنا واضح ،أي أن اللغة تم نشوؤها بالمواضعة و الاتفاق بين الناس , فهو يرى أن اللغة ليست هبة من عند الله بل باجتماع الناس على تسمية المسميات , فلو عدنا إلى علماء العصور القديمة نجد من قال هذا الرأي كالفيلسوف اليوناني ***ديموكريطس (Democrite)*** في (القرن الخامس قبل الميلاد) ،وقد نهج نهجه بعض فلاسفة العصر الحديث كاليفلسوف الانجليزي ***آدام سميث (A.Smith)*** .

- ✓ **<u>نظرية المحاكاة و التقليد :</u>** و تقول أن آدم –عليه السلام –لما نزل من الجنة بهذه الأسماء و التي علمه الله إياها ورزقه الله عز و جل الذرية ،أخذ هؤلاء

الأطفال الصغار يحاكون و يقلدون الآباء و الأمهات في هذه الألفاظ ، فنجد الطفل على سبيل المثال الذي ولد في بيئة من البيئات ، ما الذي يتكلمه و يتحدثه هذا الطفل ؟ إنَما يحاكي لغة أبيه و أمه ، فلو أن هذا الطفل العربي نشأ في بيئة عربية صارت ألفاظه عربية فيقول مثلا : أبي و أمي ، و إذا كان على سبيل المثال هذا الطفل نفسه وُلد في ذات اللحظة في بيئة فارسية أو إنجليزية أو تركية فنجدهيتجدث بلغة أمِّه و أبيه و يحاكيهما أي يقلدهما .

إذن صحيح أن اللغة و التقليد فيها بدأ ببعض الألفاظ ، لكن الأجيال توارثت هذه اللغة عن طريق التقليد و المحاكاة للأصوات و الألفاظ و الجمل .

كما كان يحاكي الإنسان فيها أصوات الطبيعة ، وهذا راجع لقول ابن جني في خصائصه:" **أصل اللغات من الأصوات المسموعة كدَوي الريح و خرير المياه ...** ".[iii]

فقد تأثر الإنسان بهذه الأصوات و أخذ يقلدها شيئا فشيئا ، و ارتقت تبعا لارتقاء العقل البشري إلى أن وصلت اللغة إلى ما هي عليه ، ولقد ذهب إلى هذا الرأي كثير من الباحثين أمثال ***الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 170 هـ)*** ، و المحدثين ***مصطفى صادق الرافعي و عبد الواحد الوافي*** و غيرهم .

- ✓ **<u>نظرية اللغة توقيف و اصطلاح :</u>** و هذه النظرية أخذت مبدأ الوسطية بين نظرية التوقيف و الثانية نظرية الاصطلاح و التواضع.

و من الدارسين نذكر ***أبا إسحاق الإسفراينـي*** الذي قال بأن بداية اللغة من عند الله ،و التتمة من عند البشر عن طريق الاصطلاح ، و من الذين نهجوا هذا النهج أيضا ***أبو حامد الغزالي ، و أبو بكر الباقلانـي.***

محاضرة الثانية

[i] محمد بن إبراهيم الحمد،فقه اللغة مفهومه وموضوعاته وقضاياه،دار ابن خزيمة،الرياض.

[ii] ابن جني،الخصائص،"باب القول على أصل اللغة إلهام هي أم اصطلاح"،ج1.

[iii] ابن جني ، الخصائص،ج1.